الأديب إبراهيم نصرالله في ضوء رواياته

THE WRITER IBRAHIM NASRALLAH IN THE LIGHT OF HIS NOVELS

عبدالآخر*

ABSTRACT:

This article includes the fascinating literary works, structural literary arts and the modern literary genres that were addressed by the writer Ibrahim Nasrallah in all his creative writings in general and in his all Arabic novels in particular, so I focused on highlighting his productive literary talents in terms of fiction, constructive literature and the effective social characteristics left by his wonderful literary works on the Arab nation and others at the international, historical, political, religious and humanitarian levels and on the levels of justice and equality, you would find in his novels comprehensive ideas and vital espionage and some amazing questions about Arab nationalism, the Islamic nation, human equality, and most of his novels based on the injustice and aggression of the British and Zionist authority and the sacrifices and struggle of the Palestinian Islamic nation to revive the history of his beloved homeland in the memory of the young generations to be fully informed about the bloody intrigues and trivial promises that break their unity and thus disperse their gatherings.

KEYWORDS: Elements of novel, Palestinian Comedy, Poetic language, wonderful history, Cultural heritage, Different dimensions

الكلمات المفتاحية: عناصر الرواية ، الكوميديا الفلسطينية ، اللغة الشعرية ، التاريخ الرائع ، التراث الثقافي ، أبعاد مختلفة

الملخص

تشتمل هذه المقالة علي الأعمال الأدبية الرائعة والفنون الأدبية الإنشائية والأنواع الأدبية الحديثة التي عالجها الأديب الأريب إبراهيم نصرالله في جميع كتاباته الإبداعية علي الأعم ورواياته العربية علي الأخص فقمت بالتركيزالخاص علي إبراز مواهبه الأدبية الانتاجية

* الباحث في الدكتوراه بقسم الدراسات العربية والإفريقية بجامعة جواهرلال نهرو بدهلي الجديدة، الهند

الموفورة من حيث التفنن الروائي والأدبية الإنشائية والملامح الاجتماعية الفعالة التي تركتها أعماله الأدبية علي الأمة العربية وغيرها علي المستويات الدولية والتاريخية والسياسية والدينية والإنسانية وعلي مستويات العدل والإحسان فتجد في رواياته الأفكار الشاملة والتجسس الحيوي والأسئلة المدهشة حول القومية العربية والأمة الإسلامية والمساوات الإنسانية ومعظم رواياته تبتني علي الظلم والعدوان من أصحاب الشوكة والسلطة البريطانية والصهيونية وعلي التضحيات والنضال من أبناء الأمة الإسلامية الفلسطينية وعلي إحياء تاريخ وطنه الحبيب في ذاكرة الأجيال الناشئة كي يكونوا علي اطلاع تام حول الدسائس الدامية والوعود التافهة التي تمزق شملهم وتفرق جمعهم.

الكلمات الرئيسية: عناصر الرواية، الملهات الفلسطينية، الكائن الثقافي، اللغة الشعرية، التاريخ القيم، الأبعاد المختلفة.

مولده ونشأته

هو أديب أريب وروائي رائع وشاعر بديع وكاتب واقعي وفلسطيني متوقد الذهن وعربي مضطرم الشعور ورجل حاد البادرة، ينتمي إلي أسرة فلسطينية قدعانت أشد المعاناة في أرضها الحبيبة وتعرضت للمؤامرات الصهيونية والعدائيات البريطانية الاستعمارية حتى أتى عليها حين من الدهر لم يكن لها ثبات في أرضها ولا قرار في بلادها وفي النهاية ذهبت ضحية للقهر والعدوان من السياسات الدولية والمبادرات الصهيونية والاضطرابات العرقية والطائفية لليهود، فصارت تفقد هويتها الفلسطينية وطنها الحبيب شيأ فشيأ حتى اضطرت للهجرة عام 1948 للحفاظ على وجودها من قرية "البريج" 28 كم غربي مدينة القدس إلى المملكة الأردنية الهاشمية.

ثم ولد هناك إبراهيم نصرالله عام 1954 من أبوين فلسطينيين في مخيم الوحدات بالعاصمة الأردنية عمان الذان عاشا أياما رهيبة وحياة عصيبة خلال الترحال من وطنهما نحو المنافي، فنشأ وترعرع فيها و درس في مدارس وكالة الغوث في مخيم الوحدات وأكمل

دراسته في مركز تدريب عمان لإعداد المعلمين وحصل على دبلوم تربية وعلم نفس عام 1976م، ثم غادر إلى المملكة العربية السعودية لبداية حياة جديدة وللحصول على الوظيفة حيث عمل مدرساً في منطقة "القنفذة" لمدة عامين 1976-1978م، ثم رجع إلى الأردن بعد سنتين وعمل في الصحافة الأردنية من عام 1978-1996م، وكذالك قام بخدمته في مؤسسة عبد الحميد شومان "دارة الفنون" كمستشار ثقافي لها ومديرا للنشاطات الأدبية فيها بين عامي 1996 إلى عام 2006 ثم تفرغ بعد ذلك للكتابة والدراسة وللتفكير الطويل البنائي في البحث عن الحلول للشؤون الاجتماعية والسياسية والأخلاقية والقضايا الفلسطينية وتمتع بعضوية رابطة الكتاب الأردنيين، واتحاد العام للأدباء والكتاب العرب ثم قدم الروائي استقالته من عضوية رابطة الكتاب الأردنيين في منتصف عام 2018 [1].

حياة الروائي والشاعر والكاتب إبراهيم نصرالله مليئة بالأحداث والمأسات قد تعرضت في بعض الأحيان للمكاره وأخرى للمحاسن، فحياته غنية ومفعمة من الحكم والتجارب والأبعاد المختلفة للإيجابية والسلبية، فقد تجشم كثيرا من المصائب والآم في سبيل التطور والإزدهار واعترف ذالك في أثناء حوار موسع مع صحفة "الأيام" وهو فيما يلي :

إذا سلَّمنا أن المرحلة الأولى من حياة الإنسان هي الأكثر تأثيراً في مسار حياته، فإن طفولتي ستلعب هذا الدور بصورة عميقة جداً في مساري الإنساني ومساري الكتابي أيضاً، التحدي الكبير الذي واجهنا كجيل عاش آثار النكبة مباشرة، وأقسى ظروف الحياة، ألا يغرق في الوحل الذي وجد نفسه فيه، وأن يحيله إلى تراب صالح لنمو الحياة، الأمل، الجمال، كي لا نسقط في فخ السخط على العالم، وبذلك نتحول إلى كائنات سلبية، أظن أن أهم ما فعله كثير من أبناء ذلك الجيل أنه استطاع أن يحالف الجمال ويوجده، وأن يحمي إنسانيته ويضيء ذاكرته بالأمل، بحيث يكون حليفاً للمستقبل؛ المستقبل الإنساني والمستقبل الوطني، لكن تحقق ذلك كله كان بمثابة معجزة، إذ عليك أن تعمل أكثر،

[1] المعاني مأخوذة من :
http://www.adab.com/modules.php?name=Sh3er&doWhat=ssd&shid=120

وتجتهد أكثر، وتستوعب مأساة المخيم وقسوة المنفى لتكون جزءاً من نهضة أسرتك في غربتها وشعبك في ضياعه، ونفسك من كل الظروف المحيطة بها، الظروف التي توفر كل شروط زوال هذه النفس وانسحاقها، وتلك كانت معركتنا، معركة آبائنا الذين كانوا في ريعان شبابهم، وأظن أن انتصار ذلك الجيل على مأساته هو الأساس الذي بنى عليه الشعب الفلسطيني فصول قضيته، حياً، متحدياً، غير قابل للزوال، ورافضاً أقسى وضع إنساني وجد نفسه فيه [2].

فالكتابات الإبداعية والأعمال الأدبية لإبراهيم نصرالله شعرا ورواية وقصصا للأطفال عامرة باالتحولات الثقافية والتطورات العلمية والتقلبات السياسية والوقائع الاجتماعية والأحداث التاريخية، والسلسلة الروائية الممتعة للغاية للملهاة الفلسطينية التي تضم ثمانية روايات مستقلة أحسن نماذج للدفاع عن عرضه وسمائه ووطنه وللحفاظ على تاريخ بلاده والمكافحات التحريرية لها ولإحياء ذكريات أبناءها الأبرار الذين قدموا التضحيات المثيلة لها، وكذالك االسلسلة الروائية الفانتازية للشرفات التي تجمع خمس روايات كاملة أروع أسلوب للقضاء على الامتيازات الاجتماعية السلبية بين الرجل والمرأة والإعتداعات الاجتماعية المقامة بها من جهة الشرفاء، وللإبقاء على نزعة التوحش التي تسود المجتمعات وتبرر كل شيئ والنزعة المادية البعيدة عن القيم الخلقية والأقدار الإنسانية الفاضلة، وتشهد تجربة نصرالله الشعرية أيضا طول باعه في قرض الشعر العربي، فدواوينه الثلاثة تعتبر نقلة كبيرة في تركيز قصائده على الإنساني أكثر وأكثر، وبدا احتفاؤه بالأشياء والتفاصيل عاليا، كما في قصائده النوافذ والدرج ورحيل وقصائد الحب التي تحتل الجزء الأكبر من أعماله الشعرية.

يعتبر إبراهيم نصرالله اليوم واحداً من أكثر الكتاب العرب تأثيراً وانتشاراً لأن الأعمال الأدبية والكتابات الإبداعية له تؤكد بقوة على الإبداع الثقافي بكل أشكاله يشكل سداً منيعاً في مواجهة محاولات الطمس والتغييب والإقصاء التي يمارسها الاحتلال الصهيوني منذ أكثر من سبعين عاما، وبأن الفلسطينيين هم أصحاب الأرض الأصلي، أطراف القضية

[2] صحفة "الأيام" http://www.al-ayyam.com/ar_page.php?id=12a5238ey312812430Y12a5238e

العادلة، وكذالك تؤكد أيضا على أن الثقافة وسيلة أساسية لإعلاء صوت الحق الفلسطيني، وللتأكيد على انتصار الفلسطيني للحياة التي الفنون والآداب من أروع تجلياتها، كما ينتصر للوطن، وبأن الثقافة فعل لتعزيز الصمود، وهي بالأساس جزء لا يتجزأ من المقاومة، وفحص الكلام إن مثل إبراهيم نصرالله هو مثل المناضل بالسلاح، فهو يتخذ من القلم سلاحه القوي الذي يرسم به ملامح الوطن الغائب عن عقول الكثيرين، ليعيد له المجد والحرية.

أرض فلسطين الأدبية

أنجبت أرض فلسطين كثيرا من الأدباء والكتاب الذين أسهموا بكتاباتهم في الأدب العربي والفلسطيني والآداب الأخرى إسهاما كبيرا وأثروا المكتبة الأدبية العربية بالكتابة في مختلف فنون الأدب من الشعر والرواية والقصة والمسرحية والمذكرة والسيرة الذاتية وغيرها.

إن إبراهيم نصرالله وغسان كنفاني وإميل حبيبي وسميح القاسم وفدوي طوقان وجبرا إبراهيم جبرا ومحمود درويش وسحر خليفة، هم بعض من الأدباء من قائمة طويلة، والذين لم يمارسوا هذه الفنون في روائعهم الأدبية للتعبير عن ذواتهم وما عانوه من نكبات ونكسات متجسدة في التشريد والتهجير وما إلى ذلك فقط بل استخدموا لها تقنيات متنوعة وسرديات مختلفة وأساليب غنائية مكثفة بعيدة عن الإطراء والتضخيم مما أعطاها وصولا عالميا وتسبب في تلقي الأدب الفلسطيني في الأوساط الأدبية المحلية والعالمية قبولا واسعا يحظى به أي أدب آخر لمنطقة ذات حجم فلسطين.

إن الرواية هي إحدى الفنون التي كتبت فيها مجموعة من الأدباء الفلسطينيين وعالجت فيها قضايا عديدة مرتبطة بالوطن والمنفى والذاكرة والشتات وغيره ويعتبر إبراهيم نصرالله أيضا من أهم الأدباء الذين يعد إسهامهم إنجازا باهرا في هذا الحقل الأدبي الروائي.

إن إبراهيم نصرالله أديب متعدد المواهب ومختلف الأبعاد والجوانب، وألف كماً هائلا من الأعمال الأدبية رواية وشعرا ونقدا وترجمة، ووصفه بعض النقاد "بالكائن الثقافي" وذلك لأنه أمضى ما يقارب نصف قرن من عمره يبحر في محيط لا محدود من الثقافة والإبداع

الفني والأدبي، وكذلك قام بدور قيادي في تطوير اللغة العربية وآدابها من خلال التنوع والتفنن في الرواية خاصة.

يعتبر إبراهيم نصرالله شاعرا وناقدا ومترجما ورساما وأكثر من ذلك كله إنه يعد روائيا بارزا لايزال يؤدي دورا رياديا ملحوظا في الإتيان بالرواية العربية بإزاء الرواية الغربية ويعتبر أيضا من أبرز الروائيين الفلسطينيين والأردنيين في القرن العشرين وله دور مهم كبير في تحسين الرواية العربية عامة وتطوير الرواية الفلسطينية والأردنية خاصة.

أعماله الأدبية

قام إبراهيم نصرالله بتأليف حوالي أكثر من عشرين رواية، من أهمها سلسلة "الملهاة الفلسطينية" وسلسلة "الشرفات" و "حرب الكلب الثانية" و "هزائم المنتصرين" وجميع الروايات من ناحية المضمون ذات هاجس واحد مشترك هو السعي إلى إقامة العدل والمساواة بين الإناث والذكور وقلق غياب وضياع الوطن المحبوب والاغتراب والمنفى في البلدان الأخرى والعودة إليه بكل معاني الرغبة والشوق العريض يطول انتظاره ولا يعلم أحد متى ينتهي إلا الله الواحد القهار.

ويتصل هذا الهاجس بهموم الإنسان العربي بشكل عام ويتصاعد أكثر عند الشخصيات الفلسطينية التي لها حضور قوي في رواياته خاصة، ومؤلفات إبراهيم نصرالله الثلاثة المشهورة وهي "أفق التحولات في الرواية العربية" و"أفق التحولات في الشعر العربي" و"أفق التحولات في القصة القصيرة" تعطي للغة العربية وآدابها وفنونها وأنواعها حياة من جديد للرقي والإزدهار الشامل.

رغم أن إبراهيم نصرالله كان أديبا متعدد المواهب والعطاء ومتفاوت الأبعاد والجوانب فإنه يعالج القصة والرواية والشعر والمقالة والبحث الأدبي والنقد والدراسات الفنية ويمارس الإبداعات الفنية والتقنيات السينمائية كذلك، وله العديد من الكتب في كل الفنون الأدبية من الرواية والشعر والنقد والسيرة الذاتية، ورغم أنه لعب دورا بارزا في إثراء اللغة العربية وتطوير الفنون الأدبية عامة وفن الرواية خاصة وترك تراثا قيما في كل فن من فنون الأدب العربي حيث أن رواياته فهي أكثر تنوعا وأغزر محتوى، ورغم أنه عالج في رواياته القضايا

الفلسطينية والعربية المهمة مثل المنفى والاغتراب والحنين إلى الوطن ومأساة الشعب الفلسطيني والعربي، ويناقش القضايا الفلسطنية الهامة أيضا مثل الاحتلال الصهيوني والنكبة والنكسة وما آلت إليه حالة الشعب الفلسطيني في الشتات، مما دفع مارون عبود إلى القول عن رواية "زمن الخيول البيضاء" إنها تفوقت على رواية "دعاء الكروان" لطه حسين، رغم كل هذا وذاك فلم يهتم به الباحثون كما يليق بمقامه.

وصحيح أن بعض النقاد والباحثين قاموا بالبحث فيه وعالجوا بعض جوانب أعماله كما كتبت الدكتوراة نداء أحمد مشعل "الوصف في تجربة إبراهيم نصرالله الروائية" وكتب الدكتور مرشد أحمد "البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصرالله" وكتب الدكتور دلال حسين عنبتاوي "المكان بين الرؤيا والتشكيل في شعر إبراهيم نصر الله" وكذلك كتب الناقد الدكتور حسين نشوان "عين ثالثة في ....دراسة أعمال إبراهيم نصرالله" ولكني لا أعتقد أن أي رجل اهتم بأعماله اهتماما يجدر به من حيث ريادته في المشهد الروائي الفلسطيني.

كما اتضح مسبقا أن الأديب الشهير إبراهيم نصرالله يمتلك يدا طولي في اللغة العربية وآدابها وشهرة فائقة بين كتابها ورجالها المحافظين على هويتها وتطوراتها وتحسيناتها، فعالج جميع مواهبه الأدبية والمؤهلات الإبداعية والأبعاد الفكرية في جميع أنواع الأدب رواية وشعرا وقصصا للأطفال، ومن انتاجاته الأدبية الروائية تسعة عشر رواية من أهمها حرب الكلب الثانية وسلسلة الملهاة الفلسطينية وسلسلة الشرفات، ومن منجزاته الشعرية ثمانية عشر مجموعة شعرية من أهمها الخيول على مشارف المدينة ونعمان يسترد لونه و أناشيد الصباح، ومن مؤلفاته للأطفال صباح الخير يا أطفال وأشياء طيبة نسميها الوطن، وكذالك قام بتأليف كتب عديدة حول موضوعات مختلفة يبلغ عددها حوالي عشرة من أهمها هزائم المنتصرين: السينما بين حرية الإبداع ومنطق السوق [3].

أسلوبه الروائية

[3] المعاني مأخوذة من http://weziwezi.com/نبذة-عن-إبراهيم-نصر-الله/

يعد الروائي إبراهيم نصرالله من أبرز الشعراء العرب المعاصرين الذين كتبوا نصوصا روائية برعوا فيها إلي حد الدهشة إذ تمكن بفضل إبداعه المتعاقب المتميز خلال عقدين من أن يتصدر واجهة الرواية في الأردن ويحقق شهرة علي مستوى الوطن العربي والعالمي لكونه وظف خبرته الناضة في الكتابة الصحفية وبراعته في القول الشعري وثقافته الواسعة في تقديم مشروع روائي رائد أقصى تكرار الأصوات التقليدية منفتحا علي مجالات تخييلية لاحضور فيها للأشكال والصيغ المألوفة فخلق بنية مهيمنة جسدت مهارة فائقة باستخدام الآليات الصياغية وأثثت مضمونا حكائيا غنيا بقضايا مصيرية تشغل بال الإنسان العربي ومشحونا بفيض دلالي وفق علاقة جدلية ناتجة عن إمحاء التنافر بين الشكل والمضمون وذات أبعاد جمالية قادرة على التأثير في الملتقي. [4]

العناصر في رواياته

ومن المعروف أن الرواية بناء يتألف من عناصر عدة يجب تماسكها وترابطها ومن عناصر الرواية البارزة اللغة والزمان والمكان والشخصية، وتلعب هذه العناصر دورا بارزا في تحقيق الرواية هدفها الأكبر وهو نقل الحياة والطبيعة البشرية بشتى أحوالها وألوانها لإدراك معنى الحياة ودواخل الذات الإنسانية، ونجاح الرواية في إحقاق هدفها الأكبر منوط بأنه كيف يستخدم الرواي عناصر الرواية إذا استخدمها بشكل ممتع فنجاحها في تحقيق هدفها مضمون ولكن ليس هناك أي ضمان لنجاحها في تحقيق هدفها إذا استخدمها الروائي بشكل غير مناسب.

أما حال إبراهيم نصرالله في استخدام عناصر الرواية البارزة فهي قائمة على درجة عليا في هذا الصدد وبصفته مطلعا على الآداب العربية والغربية وبكونه ماهرا في اللغتين العربية والإنكليزية وعالما بفنون الفلسفة والأدب والنقد واللغة والترجمة يعرف بصورة جيدة طريقة استخدام عناصر الرواية لكي تؤثر في نفوس القارئين أثرا كبيرا وتنقلهم من وعيهم العادي إلى الوعي الذي يجره الكاتب إليهم.

[4] الدكتور مرشد أحمد ، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصرالله ، ص : 13 ، الطبعة الأولى : 2005 ، المطبعة : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

فيقول الدكتور مرشد أحمد في كتابه " البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصرالله " ومن خلال المؤشرات النصية في روايات إبراهيم نصرالله وجدت أن الروائي ضمن نصوصه ثلاثة عناصر هي : الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وقد ألح عليها عبر مدار الحكي ولذالك استحوذت على مساحة نصية واسعة من منظومة الحكي الروائي وباستثمار هذه العناصر الدالة يمكن إنتاج الدلالة وما يميز هذه العناصر أنها تشكل وحدة موضوعية وتتصف بالترابط والاتساق والتكامل مما يمكنها من تشكيل نسق دلالي له خصائصه وجمالياته وبفعل مجاورة هذين النسقين : البنائي والدلالي يتشكل نسق العالم الروائي الذي يشير إلي اتساق العالم الداخلي في روايات إبراهيم نصرالله وهذا الاتساق كفيل بأن يجعل الروايات تختزل مسافة التلقي وتكسب جمالياتها[5].

الزمن

ومن عناصر الرواية البارزة الأخري الزمن وله دور مهم في جعل الرواية مؤثرة، فعلى الروائي أن يصوره تصويرا قابلا للتصديق لدى نقل حقيقة الحياة ودخيلة الإنسان إلى صفحات روايته على وجه عام في أغلب الروايات العربية تسير آونة الزمن سيرا أفقيا من الماضي إلى الحاضر وتتجه إلى المستقبل بصورة متسلسلة ولكن إبراهيم نصر الله لا يتبع هذا التصور الزمني وذلك لأن هذا التصور في وجهة نظره يضيق عن تصوير الوعي الإنساني بالزمن ويرى إبراهيم نصر الله أن الإنسان كائن ذو ذاكرة تتجمع فيها آناء الزمن تجمعا غريبا فيخلط فيها الماضي بالحاضر ويؤثر ذلك في ما تختزنه الذات من تطلعات المستقبل.

فيقول الكاتب غاستون باشلار في بنية الزمن في روايات إبراهيم نصر الله : إن الزمن الروائي لم يكن قليل الشأن وإنما كان ذا حضور فاعل في النص الروائي بسبب براعة الروائي في تحويل الزمن إلى مادة طيعة نقلت مزيجا من الأحداث الغرائبية والواقعية، وتقاطعت فيها السياقات الحكائية التي تم حكيها وفق أنظمة صوفية ذات إيقاع يتسق منطق الحكي ويحقق

[5] المصدر نفسه ، ص : 14

جماليات التلقي، و ذالك امتاز كل نص روائي بنمطه الزمني و تقنياته الزمنية التي تناوبت علي الحكي وقيم الزمن الخاصة به[6].

فليس من الضروري أن تتم المطابقة بين تتابع الأحداث في النص الروائي والترتيب الطبيعي لها كما وقعت بالفعل، لأن السارد ليس بوسعه أن يحكي عددا من الأحداث في آن واحد، وهذ التمايز بين زمن الحكاية و زمن الحكي هو الذي يمنح الحكي الروائي سمة جمالية تميزه عن الأنواع الحكائية الأخرى، ومهارة الروائي الفنية تظهر لا في حضور هذين الزمنين في روايته، بل على قدرته في نجس الحركة بينهما بحيث تنتج اللعبة الفنية بين هذين الزمنين أو في حركة العلاقة بينهما و دلالاتها، و بحيث تتسق هذه الدلالات المولدة علي المستوى الفنى و دلالات العناصر الأخرى في النص الروائي[7].

لذلك يمكننا أن نرى أن إبراهيم نصرالله يبني لروايته هيكلا زمنيا محددا، قد يكون ليلة واحدة وقد يكون سنة واحدة وقد يكون أسبوعا واحدا وقد يطول الزمن أحيانا إلى ما يقارب نصف قرن من الزمن، وهذه الخلافات الزمنية ستجدها على وجه الكمال والتمام في جميع رواياته المصدرة في ضمن "الملهاة الفلسطينية، والشرفات" وهو يستعين بالذاكرة الحافلة بالأحداث والتجارب لشخصيات الرواية ومن خلال الذاكرة يعرض أشياء كثيرة على امتداد القرن بل القرون.

المكان

ومن أهم عناصر الرواية الأخرى المكان واختار إبراهيم نصرالله في رواياته أماكنة محدودة مثل القنفذة في روايته "براري الحمي" ومخيم الوحدات في روايته "طيور الحذر" وعمان في روايته "حارس المدينة الضائعة" و أماكنة غير محدودة أيضا مثل المدينة في روايته "عو" و المخيم في روايته "مجرد 2 فقط" ونحو ذالك البلاد والعاصمة والمعسكر.

[6] غاستون باشلار، جدلية الزمن، ص : 68

[7] الدكتوراة يمنى العيد، في معرفة النص .. دراسات في النقد الأدبي، منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت، الطبعة الثانية : 1984، ص : 233

فيعد المكان من أحد المكونات الحكائية التي تشكل بنية النص الروائي لكونه يمثل العنصر الأساسي الذي يتطلبه الحدث الروائي والشخصية الروائية في الوقت نفسه، ولهذا يلعب دورا مركزيا داخل منظومة الحكي لأن الحدث الروائي لا يمكن أن يتم في الفراغ، بل لابد من مكان يقع فيه كي ياخذ من مصداقيته وتتم عملية تبليغه بنوع من المصداقية إلى المتلقي، ولكون النص الروائي يتسم بتنوع الأحداث و تغيرها، يقتضي هذاالأمر تعدد الأماكن وتنوع تجلياتها حسب السيمات التي تتوالى في الحكاية، ولهذا جزم "بوتور" بعدم وجود نص روائي تجري حوادثه في مكان واحد، و إذا ماتجلي للمتلقي أنها تجري في مكان واحد، فإن هذا المكان يخلق في ذهن المتلقي أفكارا تنقله إلى أماكن أخرى[8].

ولكنه أبقى لكل شخصية من شخصيات الرواية ذاكرتها ومن خلال الذاكرة يستطيع الكاتب أن يبرز جميع الأمكنة والمدن والبلدان التي تتعلق بها الشخصيات أو تسافر إليها بسبب من الأسباب.

وقد لعبت التغيرات الاجتماعية التي طرأت علي المجتمع العربي والتبدلات الاقتصادية التي تعرض لها والأحداث السياسية المتواترة التي هزت كيانه ووسعت الفرقة بين أقطاره بالإضافة إلى تعرض الوطن العربي للغزو الاستعماري بطرق مختلفة طمعا بخيراته و موقعه الاستراتيجي دورا هاما في لفت نظر الروائيين العرب إلى المكان[9].

وعلى الرغم من هذا الاهتمام بالمكان على مستوى الإبداع الروائي، لم يحظ المكان بالاهتمام المناسب من النقاد العرب، وما كتب عنه اعتمد على الدراسات النقدية الأجنبية، وهي قليلة و قسم منها غير مترجم، فلم يبق حظا وافرا من الدراسات بالقياس إلي الزمان والشخصية، وكل ما كتب عن هذه البنية الحكائية بقي محصورا في رتبة الاجتهادات[10].

الشخصية

[8] ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ص : 61

[9] أحمد مرشد، المكان في الرواية العربية، 1995، ص : 84

[10] حميد لحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى : 1991، ص : 62

تعد الشخصية إحدى المكونات الحكائية التي تشكل بنية النص الروائي لكونها تمثل العنصر الفعال الذي ينجز الأفعال أو يتقلبها وقوعا التي تمتد وتترابط في مسار الحكاية، ومن أجل أن تقوم الشخصية بإملاء اللحظة الشخصية المستندة إليها تأليفا وتفهم بالواقع وتمتلئ بروح الحياة، يعمل الروائي على بناءها بناء متميزا محاولا أن يجسد عبرها أكبر قدر ممكن من تجليات الحياة الاجتماعية، ولذالك يمكن القول: إن الشخصية الروائية يمكن أن تكون مؤشرا دالا على المرحلة الاجتماعية التاريخية التي تعيشها وتعبر عنها، حيث تكشف عن نظرتها الواعية إلي العالم، وهذه النظرة هي أرقي أشكال الوعي لدي الإنسان وموقف خلاق يسهم في امتلاك الواقع جماليا، لأن غني وعمق الشخصيات المخلوقة فنيا يتبعان غني وعمق المجرى الاجتماعي الشامل، ولهذا تعد الشخصية الروائية أحد المقاييس الأساسية التي يعتمد للاعتراف بكاتب الرواية أنه روائي حقيقي[11].

وكذلك من أهم عناصر الرواية الشخصية ويعطيها إبراهيم نصرالله عناية كبيرة ومن خلالها يعبر عن تجاربه وفهمه لمعاني الحياة والإنسان وبسبب التجربة الفلسطينة التي عاناها الروائي قبل سنة 1948م في فلسطين وبعد سنة 1948م خارج فلسطين وخصوصا في الأردن و العراق وسوريا تحتل شخصية الفلسطيني مكانة مرموقة ورئيسية في كل رواياته تقريبا وهو يحيطها دائما بمجوعة صغيرة من الشخصيات الأخرى التي تتفاعل معها لإبراز المزيد من مزاياها، فمن شخصيات إبراهيم نصرالله الفلسطينية الرئيسية هي العلم العربي أحيانا و قد تكون العلم الأجنبي من أمثال " ميشيل، بلوتر، أنطونيو، غور باتشوف، بوش" .

إن التنوع فتح أمام إبراهيم نصرالله أفقا واسعا، وحفزه على اختيار ما يراه مناسبا لشخصياته، فاشتغل هذا الحافز المتاح أمامه واختار أسماء لشخصياته من الحياة المعاصرة " فؤاد، حنون، فيصل " ومن أسماء الرسل والصحابة " يوسف، عيسي، عمر، علي، حسان، سلمان، عائشة، فاطمة " ومن التاريخ العربي "نعمان، سعد، خالد" ومن الأسماء المنسوبة إلي المكان " إبراهيم الدمنهوري، سالم الشمراني " ومن الصفات "رجل جهم، رجل طويل"

[11] الدكتور مرشد أحمد، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصرالله، ص : 33، الطبعة الأولى : 2005 ، المطبعة : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت

ومن المهن" الجنرال، الجزار" وكذالك تتجلى التنوع في الاكتفاء بالإسم المفرد "ثريا، نبيلة، سالمة، حامد" وفي الاكتفاء بالكنية "أبوصلاح، أبوعلي"[12]، فهذ التنوع يشير بوضوح إلي أن الروائي لم يعتمد في اختيار أسماء شخصياته على مصدر واحد بل على مصادر عدة، حيث متح من الحياة قسما وغرف من التراث العربي المتعدد الأنساق القسم الأكبر، من إيحاءات اللغة العربية وجماليات صرفها القسم الباقي، وهو ناتج عن تراكم أسماء الشخصيات في روايات إبراهيم نصر الله كلها وهو يعين الراوي على بناء الشخصية بصورة أفضل مما لو كان مجال الاختيار محددا، وبه أيضا تصبح الشخصية اكثر جمالا من حيث الإسمية و أكثر قبولا لدى المتلقي[13].

لغته الشعرية

ومن أهم العناصر والملامح والوسائل الفنية التي يستخدمها إبراهيم نصرالله في رواياته هي لغته العذبة المشرقة التي تجذب نفس القارئ إليها وتعمل في نفسه عمل الإبداع والشعور برشاقتها وروعة صورها أن الدارس المتأني ليدرك لدى قرائته إياها أن وراء هذه اللغة يدا صناعا تعرف كيف تنتقي الألفاظ انتقاء مقصودا متمهلا متدبرا بعد أن رصفتها بأناقة في بناء جميل لكى تؤثر على القارئ وعلى سبيل المثال أنا أقدم لكم نبذة من روايته تحت شمش الضحى "وعند ماعاد للأوراق التي أمامه، أحس بأن الحياة قسمان: واحدة تمضيها وواحدة تعيشها، قال له ياسمين كلاما متشابها: ما الفرق بين حياة إنسان و إنسان؟ ذات يوم قرأت لكاتب عربي كلاما استوقفني كثيرا، قال { قد أستطيع كتابة ألف صفحة عن طفل لم يبلغ بعد العاشرة من عمره، ولا أستطيع كتابة سبعين صفحة عن رجل بلغ السبعين، تسألني، لماذا ؟ سأجيبك: لأن منسوب الحياة في الأول أكثر ارتفاعا بكثير من منسوب الحياة في الثاني، فالأول عاش الحياة والثاني عبرها }"[14].

[12] المصدر نفسه، ص : 41

[13] المصدر نفسه، ص : 41

[14] إبراهيم نصرالله ، تحت شمش الضحي ، ص : 146 ، الطبعة الرابعة : 2012 ، المطبعة : الدارالعربية للعوم ناشرون ، بيروت ، لبنان

ولا يقصد الروائي إبراهيم نصرالله بشاعرية اللغة الدغدة السطحية التي تثيرها الألفاظ في النفس لوقعها الجميل بل يقصد بها أن يهيئ النفس لتتقبل الجو الخيالي الذي يخلقه الحدث القصصي، وشاعرية اللغة في الرواية كشاعريتها في القصيدة تنقل القارئ من واقع الحياه العادي إلى ما يخلقه الكاتب من أجواء تشير إلى الواقع غير العادي ولكنها من صنع الخيال ، ومن خلال دراسة روايات إبراهيم نصرالله الكاملة يمكن للقارئ أن يدرك بأن كل صفحة من صفحات رواياته مشحونة بشاعرية اللغة ولا تخلو أي صفحة منها ولكن درجة الشحنات تختلف من صفحة لأخرى .

ويعد التوظيف المكثف للغة الشعرية الوصفية في روايات إبراهيم نصرالله مظهرا أساسيا فيها مبتعدا عن اللغة التقليدية البسيطة مستخدما لغة إيحائية مليئة بالمجازات والاستعارات، وبالرغم من وجود مثل هذه التشبيهات والاستعارات في لغة الرواية التقليدية إلا أنها لغتها كانت قائمة على التشبيهات والاستعارات فإنها من باب الاستعارات الميتة التي يحيا بها الناس العاديون ويتداولونها وتشكل جزأ من حديثهم اليومي، بينما هي عند نصر الله في اتجاهه الحداثي في الكتابة تشكل دعامة لغوية أساسية لخطابه الروائي، والمعروف أن الخطاب الروائي بشكل عام هو بنية دالة أو تشكيل لغوي سردي دال يصوغ عالما خاصا تتنوع و تتعدد في داخله اللغات والأساليب والأحداث والأشخاص والعلاقات والأمكنة والأزمنة، دون أن يقضي هذا التنوع والتعدد والاختلاف على خصوصية هذا العالم و وحدته الدالة بل يؤسسها، وقيام هذا البناء اللغوي على الاستعارة يجعل الخطاب الروائي قريبا من الخطاب الشعري[15].

وأحلي شيء في معظم رواياته الذي يتبادر إليه النظر ويخلق غاية الاهتمامات والعنايات لقراءها هو التقاطع مع الشعر في الاستهلال الذي سبق الرواية، لأنه يبدأ بأبيات تصور المعاني والمبادئ في أسلوب رشيق ممتع و في جمل تأسيسية جامعة تلقي الضوء على الفكرة

[15] الدكتوراة نداء أحمد مشعل، الوصف في تجربة إبراهيم نصر الله الروائية ، ص : 387/386 ، الطبعة الرابعة : 2015 ، عمان ، الأردن

الهامة المعنية وتعبر عما تكنه وتشعره كثير من الصدور ولكن لا تجد الكلمات التي تحسن التعبير عنها على أسلوب رائع خلاب الذي يجلب القراء إليها :

جنوبا ..... جنوبا
حيث البحر الأحمر
وسمك القرش الأبيض
"" والقنفذة ""
جنوبا ..... جنوبا
حيث طاولات المقاهي المتبعة
وأسراب الذباب الثقيل
كانت الشوارع تنتهي في جسد المدينة
إلى الفراغ
والمياه المندفعة من أعالي عسير
عبثا تحاول الوصول إلى الزرقة
جنوبا ..... جنوبا
كان الرجال يندفعون من الشمال
أو يعودون إليه
والحصاد الوحيد الذي يقطفهم
عزلة قاتلة
ومزيد من القهر[16]

وقد حافظت الجملة من حيث الأسلوب التركيبي على نمطها الخبري، ولم يعمد الشاعر إلى توظيف الأساليب الإنشائية، بل اعتمد عوضا عن ذالك على شعرية اللغة وأدواتها في بناء حركة النص، ولعل الدوافع وراء هيمنة الأسلوب الخبري هنا، تعود إلى أن مقصديه هي

[16] إبراهيم نصر الله، براري الحمي، ص : 5

البوح والتعبير عن تلك النوافذ كمكان وكحضور، فهي البطل الذي يلعب دور البطولة في النص بدون منازع .[17]

إن تجربته الروائية تعد من التجارب العربية الحديثة الناضجة والخصبة، لما تشتمل عليه من قيم فنية مهمة تميزها على مستوى التجربة الروائية في الأردن خاصة وعلى مستوى الرواية العربية عامة، إذ تتصف بشمول الرؤية، وعمق النظرة ونجاح التقنيات الإبداعية ولا سيما الوصف .[18]

الخاتمة

خلال البحث وجدت الروائي إبراهيم نصرالله أنه يحاول كل المحاولة للحفاظ على التاريخ القيم لبلاد فلسطين الخصبة فيقوم بارتباطه بالأدب والفنون والثقافة بكل جدية ومتانة، إنه يقوم بكل حماسة وسعي جميل لإحياءالأدوار الرائعة لأبناءها المخلصين تجاه بلادهم وشعوبهم المقهورة، قد ذكر من خلال رواياته سلسلة الملهاة الفلسطينية وقائع التضحيات وأحداث التقلبات والتحولات السياسية علي المستويات الداخلية والخارجية علي وجه ممتع ممزوج من الفرح والحزن والكآبة بكمات عذبة كأنه يأخذ صورا متحركة من عالم الخيال إلى عالم الوجود، وكذلك أتي إلى الأمام الشؤون الاجتماعية التي طالما تتحدث عنها خلف الباب المغلق من أمثال جرائم الأشراف داخل المجتمع الفلسطيني، إنه ركز فيها اهتماماته الخاصة على انتهاك حقوق الإنسان باسم صيانتها، والتي تتجلى وضوحا أنه حريص للغاية على الحفاظ على حقوق المرأة في المجتمع الفلسطيني خاصة وفي المجتمع العربي عامة .

يحتل إبراهيم نصرالله مكانة مرموقة في ما بين الأدباء العرب بفضل ما أضافه في الأدب العربي الحديث من حيث الفن والأسلوب والنزعات كما يقول الدكتور مُحَمَّد أحمد المجالي الكاتب الأردني ومفاد قوله: على الرغم من الشهرة التي نالها بدر شاكر السياب ونازك الملائكة بالنسبة لريادة الشعر الحر ولكن الواقع يشير إلى إن هناك أسماء مهمة أخرى أدت

[17] الدكتور دلال حسين عنبتاوي، المكان بين الرؤيا والتشكيل في شعر إبراهيم نصر الله، ص : 215

[18] الدكتوراة نداء أحمد مشعل، الوصف في تجربة إبراهيم نصر الله الروائية ، ص : 14/13 ، الطبعة الرابعة : 2015 ، عمان ، الأردن

دورا مهما وساهمت مساهمة كاملة في تطوير الرواية العربية وفنونها وولادة الشعر الحر ومن أبرزهم إبراهيم نصرالله وبلند الحيدري وتوفيق صايغ وأضاف المجالي قائلا إن الثقافات الواسعة التي كان يتمتع بها والوقفة المتأنية عنده مثيلة قلما يوجد لها نظير.

ويشير الناقد إبراهيم خليل إلى أن إنجازات إبراهيم نصرالله لم تزل تثير الجدل بين الأوساط الأدبية لما فيها من مواضيع مهمة ووسائل فنية نادرة وأدوات تقنية خلابة لم توجد في روايات وقصص عربية أخرى .

وفيما يتعلق بريادة إبراهيم نصرالله وتفضيله على الروائيين الفلسطينيين الآخرين يقول أبو منة إن إبراهيم نصرالله ليس أهم من غسان كنفاني فكانت رواياته تتجاوب على الفور مع القضايا السياسية والاجتماعية لكن إبراهيم نصرالله أدى دورا رئيسيا في تطوير الرواية فنيا وتاريخيا.